الباب الأول

حول إبداع أبى تمام

الفصل الأول: فضاءات النص.

الفصل الثانى: المصادر والمعطيات.

الفصل الثالث: حول الأصداء والمعارضات.

مدخل مبدئى

قيل إن أبا تمام عالم لكثرة ما نهل من فروع الثقافة التى أخذ نفسه بها، وكان أبرزها الثقافة التاريخية، بأبعادها المختلفة من مصادر العصور الأولى على تواليها، من الجاهلية إلى العباسية، وقد اشتد حرصه على اصطناع ذلك المزج الدقيق بين ثقافته الفنية الراقية المعقدة، وبين حسه التاريخى فى قصيدته المشهورة التى ذاع صيتها، وكثر حولها الحوار، وطال الجدل، وتناولها الدرس الأدبى شرحا وتفسيرا، وتحليلا، وتقويما، وربما بقى أمامنا منها تبين هذا الجانب التوثيقى المهم الذى يمكن أن نفيده من تعدد قراءة مثل هذا النمط من الإبداع، بما يمكن أن يرد إلى المدحة العربية بعضا من اعتبارها، لاسيما حين يرقى الشعر ليصحح فيه الواقع التاريخى، أو ـ على الأقل ـ يتسق معه، إن لم يضف إليه ما يكمل مساره الطبيعى، فى ركاب حركة التطور المعرفى والفنى بقياسات حركة التاريخ وبنية المجتمات.

ولم يغفل التاريخ هنا تفاصيل الواقعة التى صورها أبو تمام فى مدحته الذائعة، التى استطاع من خلالها أن يضيف إلى هذا التاريخ بعدا متميزا من واقع رؤيته الخاصة، وحسه الانفعالى الخاص والعام معا، حيث ينظر من خلالها إلى أبعاد تلك المعركة، فكانت نتائجه التى صاغها عبر كثير من (الحكم) التى انتشرت فيها، وحتى كان لقصيدته دورها المتميز فى تأكيد طبائع ذلك الواقع التاريخى الذى يحكى ما حدث من إغارة الروم، بقيادة إمبراطورهم (تيوفيل) على بلدة تدعى " زبطرة "، عاش فيها المسلمون فى عهد الخليفة المعتصم بالله، فجاء الجيش (البيزنطي) الذى قهر أهلها حين ساقهم إلى القسطنطينية، ثم أحرق المدينة كلها، ويرى هذا الخبر الخليفة العباسى فى جملته، ثم جاءته بعض تفاصيله الحادة تحمل نبأ المرأة العربية المسلمة التى أهانها الغزاة وعذبوها، حتى صاحت وهى فى طريقها إلى الأسر "

وامعتصماه "، فما إن بلغته استغاثتها، حتى لبى الخليفة نداءها، فجمع جنده، ومضى إلى " عمورية " ـ قلعة الروم الحصينة ـ بعد أن نبهه قواده إلى أنها أمنع بلاد الروم، وأنه لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهى أشرف عند الروم من القسطنطينية.

وعلى هذا النحو كانت حوادث (زبطرة)، وكان صوت (المرأة) دافعا لغزو "عمورية" على يد الخليفة العربى المسلم، وكانت تفاصيل تلك الأحداث داعية للشاعر العربى لكى يرتفع صوته الفنى، مستعينا بمصادر ثقافته التاريخية، ومضيفا من رؤيته الخاصة على مجمل ما صوره، حين أنشد المعتصم بالله قائلا فى البائية :

السيف أصدق إنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية ؟ بل أين النجوم؟ وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟
تخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب!
عجائبا زعموا الأيام مجفلة ... عنهن فى صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ... ما دار فى فلك منها فى قطب
لو بينت قط أمرا قبل موقعه ... لم يخف ما حل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب

أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا ... فداءها كل أم برة وأب

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها ... كسرى، وصدت صدودا عن أبى

من عهد إسكندر، أو قبل ذلك قد ... شابت نواصى الليالى وهى لم تشب

بكر فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقت إليها همة النوب

حتى إذا مخض الله السنين لها ... مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

أتتهم الكربة السوداء سادرة ... منها، وكان اسمها فراجة الكرب

جرى لها الفأل نحسا يوم (أنقرة) ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب

كم بين حيطانها من فارس بطل ... قانى الذوائب من آنى دم سرب

بسنة السيف والخطى من دمه ... لا سنة الدين والإسلام مختضب

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها، أو كأن الشمس لم تغب

ضوء من النار، والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان فى ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبة من ذا ولم تجب

تصرح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على ... بان بأهل ولم تغرب على عزب

ما ربع مية معمورا يطيف به ... غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

ولا الخدود وقد أدمين من خجل ... أشهى إلى ناظرى من خدها الترب

سماجة غنيت منا العيون بها ... عن كل حسن بدا أو منظر عجب

وحسن منقلب تبدو عواقبه ... جاءت بشاشته عن سوء منقلب

لم يعلم الكفر كم أعصر كمنت ... له المنية بين السمر والقضب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب فى الله مرتغب
ومطعم النصر لم تكهم أسنته ... يوما ولا حجبت عن روح محتجب
لم يغز قوما ولم ينهض إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها فى جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدمها ... ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما أشبوها واثقين بها ... والله فتاح باب المعقل الأشب
وقال ذو أمرهم : لا مرتع صدر ... للسارحين وليس الورد من كثب
أمانيا سلبتهم نجح هاجسها ... ظبى السيوف وأطراف القنا السلب
إن الحمامين من بيض ومن سمر ... دلوا الحياتين من ماء ومن عشب
لبيت صوتا زبطريا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
عداك حر الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلنا بالسيف منصلتا ... ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منقعرا ... ولم تعرج على الأوتاد والطنب
لما رأى الحرب رأى العين "توفلس" ... والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال جريتها ... فعزه البحر ذو التيار والحدب
هيهات زعزعت الأرض الوقور به ... عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربى لكثرته ... على الحصى وبه فقر إلى الذهب
إن الأسود أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب
ولى وقد ألجم الخطى منطقه ... بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب
أحذى قرابينه يوم الردى ومضى ... يحتث أنجى مطاياه من الهرب

موكلا بيفاع الأرض يشرفه ... من خفة الخوف لا من خفة الطرب

إن يعد من حرها عدو الظليم فقد ... أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب

كم نيل تحت سناها من سنى قمر ... وتحت عارضها من عارض شنب

يا رب حوباء لم اجتث دابرهم ... طابت، ولو ضمخت بالمسك لم تطب

ومعضب رجعت بيض السيوف به ... حتى الرضى من رداهم ميت الغضب

والحرب قائمة فى مأزق لحج ... تجثو الكماة به صعرا على الركب

كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها ... إلى المخدرة العذراء من سبب

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة ... تهتز من قضب تهتز من كثب

بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت ... أحق بالبيض أبدانا من الحجب

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير منقضب :

فبين أيامك اللائى نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب